الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بين الإنسان القديم والإنسان الجديد

تكلمت بعض المجلات السورية واللبنانية عن قلة اهتمام الأدباء المصريين بما يسمونه « أدب الحرب » ورأت في ذلك تضييعاً لإحساسات تستحق التسجيل ، ونصت بالذات على خلوّ أدبي من أحاديث الحرب ، والتفاتي إلى شؤون لا تمس أهوال الحرب من قريب ولا من بعيد

وأقول إن موقفي وموقف سائر الأدباء المصريين من الحرب هو موقف الإنسان الجديد ، وهو يختلف عن الإنسان القديم كل الاختلاف أو بعض الاختلاف

وتفصيل ذلك أن الإنسان اليوم يدرك أكثر مما يشعر ، وكان الإنسان قديماً يشعر أكثر مما يدرك ، والفرق بعيد بين الشعور والإدراك

إن حروب طروادة المشهورة في التاريخ القديم أنطقت اليونان بأعظم القصائد وأعمق الأقاصيص ، وهي حروب تعتبر ألعاب أطفال بالنسبة إلى حروب هذه الأزمان ، ومع ذلك لن يكون في شعراء هذا الجيل من يؤرخ الحروب الحاضرة ، كما أرخ القدماء تلك الحروب

الإنسان القديم كان يحارب وهو مدفوع بعوامل الازدهاء والاختيال ، أما الإنسان الجديد فيحارب وهو مدفوع بعمليات حسابية تراعى فيها الخسائر والأرباح ، فالفرق بين هذين الإنسانين هو الفرق بين الشاعر والحاسب ، وثروة الأول أحلام ، وثروة الثاني أرقام

كانت أعظم موقعة في بداية هذه الحرب هي موقعة دنكرك وقد انسحب منها الإنجليز ، فكيف كان شعورهم عند الانسحاب ؟

أنا لا أظن أنهم حزنوا ، وإنما أرجح أنهم فرحوا ، لأن الغاية من الحرب هي الربح ، الربح الذي يفهمه الإنسان الجديد ، وهو ضمان السلامة في الأموال والأرواح .

شاعر طريف

إذا تصاول أسدان كان على الأسد المغلوب أن ينسحب إلى أن يتأهب لاستئناف الصيال ، وإذا تقاتل ديكان كان على الديك المغلوب أن يثبت في الميدان إلى أن يموت

وكان ذلك لأن الأسد يدرك أكثر مما يشعر ، وأن الديك يشعر أكثر مما يدرك ، والشعور أحط مرتبة من الإدراك ، فما في الوجود شعور أقوى من شعور الأطفال

وأبو تمام الذي بلغ الغاية في الرثاء بهذا البيت في وصف أحد المستشهدين

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه ... إليه الحفاظ المرُّ والخُلق الوعر

هو نفسه أبو تمام الذي اختار في ديوان الحماسة أبياتاً في تبرير الهرب من ميدان القتال ، وهي أبيات بعيدة من روح الحماسة ، ولكنها من شواهد العقل ، فقد علل الشاعر هربه من الميدان بأنه يفر من أعدائه « طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد » ، ثم قال :

وعلمت أني إن أقاتل واحداً ... أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

وعلى هذا يكون إيثار العقل على الشعور في ميادين القتال مما آمن به العرب قبل مئات السنين ، وبهذا كان هذا الشاعر من تباشير الإنسان الجديد

أدب وأدب

الأدب الأول سبق تسهيل المواصلات ، والأدب الثاني جاء بعد تسهيل المواصلات ، فاختلفت الصور هنا وهناك

جان جاك روسو لن يُخلق بعد اليوم ، فما تسمح الدنيا في أيامنا هذه بأن يتشرد فتى مثل هذا الفتى ، بحيث يقطع مئات الأميال على قدميه ، وبحيث ينفعل بمناظر السهول والجبال ، فيكتب الروائع في وصف ما رأت عيناه وهو ينتقل من مكان إلى مكان في الشهور الطوال

أدب الرحلات سينقرض ، ولعله انقرض ، بسبب ذيوع السفر بالطيارات ، وهو سفر لا يتيح أية فرصة لدرس ما مرّ عليه من مختلف البلاد

وأدب التشرد والانتقام لن يعود ؛ وهو الروح الذي أملى

على أبى تمام هذه الأبيات عند
ما رَبعُ ميـةَ معموراً يطيـ
غيلا
ولا الخدود ولو أدمين من -
أشهـ
سماجة غنيت منها العيوز
عن
وحُسنُ منقلب تبقى عواقبه
فما تقبـل اليوم الشماتة بمدينة
أخطر الأعداء

ولأبى تمام عذر فيما صنع
الرومانية الشرقية ثم استطال
الإسلام فى الشرق ، فلم يكن بد لأ
تيوفيلس بإحراق مدينته التى أ
والإنسان الجديد يتمثل فى
فقد راعه أن يحرقها الروس
أن تعيش بعافية ، ليبلغ من
أن يفهم أن بداوة الاستقلال
والإنسان الجديد يتمثل
ستنهزم فى هذه الحرب ، فقد
لتسلم باريس وهى عصارة أجيال

حرق المعتصم مدينة عمورية :
به
بهى ربّى من ربعها الخـرب
لى ناظر من خـدها الترب
بها
حسن بدا أو منظر عجب
جاءت بشاشته من سوء منقلب
ترق ، ولو كان أهلها من

فقد استطال امبراطور الدولة
كانت نيته أن يزعزع هيبة
المؤمنين المعتصم بالله من تأديب
ت المحاربين من أكابر الملوك
ابوليون يوم دخل موسكو ،
عف النيران ، وكأن يتمنى
يرها ما يريد ، وإن كان فاته
أفضل من حضارة الاحتلال
حكومة فرنسا يوم رأت أنها
بت إعفاء باريس من القتال ،
أجيال

متاعبنا الجديدة

الحرب عندنا ليست بحرب ؛ ألم أقل لكم إنها عملية حسابية فى نظر الجيل الجديد ؟

والتاريخ ليس عندنا بتاريخ ؛ وما أنعم من يعيش فى ضيافة التاريخ !

متاعبنا الجديدة هى أن نعرف سرائر نفوسنا معرفة لا يفسدها التزييف

يجب أن نفهم ماذا نريد من الحياة ، وماذا تريد منا الحياة

فإن حددنا الجواب عن هذين السؤالين فسنمضى إلى الغاية المنشودة بلا إبطاء

ندخل حدائق الحيوان بالقاهرة أو بأى مدينة فنرى جميع أصناف الحيوان فى أمان من الانحراف ، لأنها بعيدة من جهالة الناس ، ففى الناس أعور وأعمى وأكمه وأبرص ، والحيوان لا يعانى هذه العاهات ، لأن خلو حياته من التعقيد يضمن لها السلامة والبقاء .

تكريم الدكتور طه حسين

قلت مرة : إن الأدب الحديث يحتاج إلى مؤرخ مثل أبى الفرج الأصبهانى ، ففى حيوات أدباء هذا العصر أشياء تستحق التسجيل ، وإن بدت من توافه الأشياء

وأنا سأحاكى أبا الفرج فى منهاجه الأدبى فأقص قصة يرتاح لها القراء ، لأنهم سيقرأونها مبتسمين ، والابتسام يفوق جميع الأثمان :

نشرتُ فى جريدة المصرى كلمة أدعو بها إلى تكريم الدكتور طه حسين ، بمناسبة ظهور الجزء الثالث من كتابه « على هامش السيرة » ، وأنا موقن بأن الناس سيقولون :

« لأمرٍ ما دعا زكى مبارك إلى تكريم طه حسين »

ولم أتهيب هذا القيل ، فقد علمت من أساتذتى فى باريس أن أخطر مقتل فى شمائل الفرنسيين هو تهيبهم من أن يقال ، عند مواجهة الأعمال

Qu'en dira-t-on ?

وقد وقع ما توقعت ، فقد نشرت مجلة الإثنين كلمة « لطيفة » سجلت بها دعوتى إلى تكريم الدكتور طه بعد أن كنت من خصومه الألدّاء ، وحدثنى صديق أن ناساً من خلق الله زعموا أنى أحاول استعطاف المستشار الفنى لوزارة المعارف ، لأظفر بدرجة ترفعنى إلى الصف الذى ارتقى إليه بعض النجباء من تلاميذى

ولقد أحزننى ما قرأت وما سمعت ، فما خطر فى بالى أن بى